في المشترك والمختلف بين هوكني والمدرّس ودرويش

لحظة عابرة صنعت فنانا وعمّقت مجد سوريا الفني

هل تصنع لحظة عابرة الفنان؟ يبدو كذلك، خاصة عندما يكون هذا الشخص على ثقافة عالية وذوق رفيع يؤهلانه لالتقاطها. عصام درويش تصيّد اللحظة العابرة، قبل أن يدخل باب الاحتراف، كان لعمل الفنان البريطاني، ديفيد هوكني، المعنون "السيد والسيدة كلارك برفقة القط بيرسي"، تأثير السحر على مستقبله الفني. لم يكن التأثير في الأسلوب والتقنية، وإنما في طريقة التعامل مع الفن بصفته حالة ثقافية واجتماعية. ما بدأ بلمحة مع هوكني، استمر بعلاقة طويلة بين درويش والفنان المعلّم، فاتح المدرّس؛ علاقة لم يفرض فيها المعلم على التلميذ أسلوب عمله أو تقنياته.

لوحة ديفيد هوكني.. عابرة ولكنها مؤثرة

علي قاسم
كاتب سوري
مقيم في تونس

بداية، دعونا نتفق؛ عصام درويش لا يسير على خطى الفنان البريطاني ديفيد هوكني. تماما كما لم يسر على خطى أستاذه الفنان السوري، فاتح المدرّس، الذي أطلق عليه تحبّبا وامتنانا لقب المعلم.

هل ضاعت السنوات الخمس، التي قضاها درويش طالبا في كلية الفنون الجميلة في دمشق هباء؟ فأنت لن تجد في أعمال الفنان ما يوحي بأنه تأثر بأي من الفنانين الرواد الذين درس الفن بإشرافهم، أحيانا يطل بعضهم من خلال عمل له؛ مؤكد أن نذير نبعة، يحضر بهدوء من حين لآخر.

ولكن أين المعلم فاتح المدرّس الذي ربطته بتلميذه درويش علاقة مميزة، لم يحاول فيها المدرّس أن يفرض خياراته على أسلوب درويش في العمل أو على تقنياته، وبقدر بعد المسافة التي فصلت التلميذ عن أستاذه فنيا، بقدر ما حضر التقارب. ما جمع الاثنين معا هو عملية الإبداع الفني، علاقة لا غالب فيها ولا مغلوب.

كما المعلم، كما التلميذ، أخلص كل منهما لأسلوبه، وإن تبدّل من فترة إلى أخرى، إلاّ أن وحدة غريبة ظلت تربط أعمال كل منهما.

رمزية اللوحة

ما حدث ويحدث في سوريا، غيّر من عصام درويش، وانعكس ذلك على أسلوبه وعلى خياراته التقنية، مالت الألوان إلى القتامة، واختفت مساحات الفراغ في اللوحة، وأصبح التكوين كما لو أنه ملتقط من خلال عدسة مقربة (كلوز آب)، في خيار درامي واع، يظهر رغبة الفنان في التأكيد على الملامح. مقدّمة فرضت نفسها لنؤكد مسبقا أن العلاقة الخفية بين درويش وهوكني، وبين درويش والمعلم فاتح ليست علاقة نقل أو تقليد.

وكما يصعب تصنيف الفنان ديفيد هوكني ضمن أسلوب أو مدرسة، يصعب أيضا تصنيف أعمال عصام درويش. وإن أبدى البعض ميلا للحديث عن رمزية تطبع أجواء اللوحة عند الاثنين.

هذا الإحساس سببه الأساس أن كليهما يلجأ إلى تجميد المشهد. ولكن، أليس كل فنان يقوم عادة، كما المصوّر، بتجميد المشهد؟

عصام درويش وديفيد هوكني.. تجربة المشترك فيها هو الإبداع

اختيار عناصر اللوحة وترتيبها ضمن الفراغ هو ما يضفي الإحساس العميق بالرمزية في أعمال درويش التي قد يختار البعض أن يطلق عليها سريالية.

شد انتباهي، في نهاية السبعينات من القرن الماضي، صورة بالحجم الكبير معلقة بالمركز الثقافي الفرنسي في دمشق، هي صورة لوحة لفنان بريطاني لم يسبق أن سمعت باسمه من قبل. شيء ما في اللوحة جذبني، لم أدركه حينها، أو بالأحرى لم أبذل الجهد لأحلله.

الصورة نفسها استوقفت عصام درويش، لا أقول إنها أسرته، ولكن ما هو مؤكد أنها فتحت أمامه عوالم كان يجهلها عن نفسه.

بعد مرور أكثر من أربعين عاما على هذه الصدفة، لا أعتقد أن عصام درويش يتذكّر شيئا عن تلك اللحظة العابرة؛ كثيرا ما ننسى أحداثا عرضية في حياتنا، تغيب عن ذاكرتنا، ورغم ذلك تترك داخلنا أثرا لا يمحى.

علاقة درويش مع المعلم فاتح المدرّس علاقة من نوع آخر، علاقة واعية يتذكر الفنان كل تفاصيلها، فاتح المدرّس لم يعلم تلامذته يوما تقنيات الرسم، بل علمهم إن هم أصبحوا فنانين أن يكونوا متميّزين، يصعب ترويضهم. وهذا ما كان.

بعيدا عن الربح

استطاع درويش أن يصبح فنانا مميزا، لا يشبه أحدا. هناك فنان يشجعك أسلوبه على تقليده، نذكر بول سيزان مثالا على ذلك. لقد تحدّى سيزان أن يأتي فنان من بعده يتخطى قوة تأثيره؛ حدث ذلك، وعلى مدى عقود، لم يأت فنان إلاّ وتأثر بأسلوبه.

لا حاجة للإطالة في الحديث عن قيمة عصام درويش الفنية، فهو اليوم قيمة ثابتة لا جدال حولها. هناك جانب آخر لدرويش لا يقل أهمية عن قيمته كفنان، فعصام صانع للنجوم، ورجل علاقات من الطراز الأول، استثمر مواهبه في رعاية أجيال من الفنانين الشباب، ولا نغالي إن قلنا إنه ساهم في التعريف الإيجابي بالحركة الفنية في سوريا. لم يكن حلم عشتار، صالة العرض التي افتتحها في دمشق، مجرد مشروع تجاري لتسويق أعمال الفنانين وتحقيق الربح، بل كانت أبعد من ذلك، إنها مشروع للتباهي والتفاخر بالتجربة الفنية في سوريا.

قدرة عصام على الاحتفاء بتجارب الآخرين، تضاهي قدرته على الاحتفاء بنفسه، وهذا لا يصدر إلاّ عن معلمين كبار. ومن هذه الزاوية فقط أريد أن نحتفي بعصام درويش المعلم، فقط هو جدير بهذا اللقب بعد المعلم فاتح المدرّس.

قبل أن أختتم ما بدأته حول الفنان، قفزت أمامي على صفحة فيسبوك، مشاركة للفنان يتأمل لوحة رسمها لثلاث أزهار توليب، تلخّص الكثير من سحر درويش، فما اعتاد على تسميته النقاد لوحة صامتة، والبعض أطلق عليه لوحة جامدة، حوّله درويش إلى لوحة حية، أزهار التوليب فيها ليست فقط كائنات تتنفّس، بل تفكّر وتعشق.

ليس أجمل من مقال يختتم بكلمات المعلم عصام درويش، في مشاركته التي قفزت أمامي منذ لحظات "لا يمكنكم أبدا أن تصبحوا فنانين دون عمل مثابر ومجهد ويومي. طبعا يمكنكم أن تتمتّعوا بقدر من الثناء والإعجاب والدغدغة. ولكن إن أردتم أن تصبحوا فنانين جيدين فعليكم بالعمل دون هوادة أو تذمّر، وإذا كنتم تملكون الموهبة أيضا فستصبحون فنانين جيدين. ولكن لا أحد يمكنه العمل بدلا عنكم لتصلوا إلى تلك المرتبة، أؤكد لكم".

من ساواك بنفسه ما ظلم. نصيحة يقدّمها المعلم لجيل شاب يطمح للسير في درب الفن التشكيلي، صنعت من عصام درويش الفنان الذي نعرفه اليوم.

عمل للفنان عصام درويش.. فن تجميد المشهد

أطفال الربيع اللبناني.. أيقونات فوتوغرافية

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

نشرت الناشطة اللبنانية والعاملة في مجال الفن رين عباس صورة فوتوغرافية لها ولابنتها التي لم تتجاوز السبع سنوات تظهرها مُجيبة على أسئلة أحد الصحافيين في حوار، هو التالي:

– لماذا تشاركين في المظاهرة؟

* لأنني ضد كل الطبقة السياسية التي سرقتنا لكي تشتري أغراضها الخاصة.

– هل سرقوا الحلوى الخاصة بك؟

* أنا لا أمزح معك!

إلى جانب مظاهر الثورة، تشكّلت ورشات عمل فنية صُمّمت خصيصا للأطفال ليشاركوا فيها راسمين أحلامهم عن لبنان جديد

يُعتبر هذا الحوار القصير جدا الذي جرى بين ابنة الناشطة اللبنانية وأحد الصحافيين مدخلا مهما إلى أثر الثورة في نفوس أطفال وأولاد لبنان، وليس على مستوى ترداد ما يسمعون من كلام الراشدين من حولهم، بل على مستوى درجة الوعي التي بالتأكيد يُعوّل عليها لاحقا في ابتكار لبنان جديد لا زال إلى اليوم حُلما لم يتحقّق.

وفي نفس السياق نشر أحد الناشطين صورة على صفحة الفيسبوك لوالدين يفترشان أرض الشارع مع ابنيهما، وهما منهمكان في تعليمه من كتابه المدرسي.

هذه صورة من بين مجموعة صور كثيرة برزت على شبكات التواصل تشكّل هي الأخرى مدخلا ثوريا إلى "تربية مدنية" تُلقّن أصولها على أرض الواقع، خلافا لمنهاج التربية المدنية الباهت الذي يتحمّل وزره صغار لبنان في مدارسهم مع الكثير من الملل والتهكم.

هؤلاء الأحداث، أطفال الثورة اللبنانية، ومنذ بدايتها، بدؤوا يتلقّون أولى دروسهم الفعلية في حب الوطن وإدراك ماهيته وما لحق به من ضرر وكيفية حمايته من استمرارية المخاطر التي لا زالت مُحدقة به.

ويحضرني هنا قول مهاتما غاندي "المواطنة مثل الديمقراطية، لكي تعيش يجب أن تُعاش". هذا ما قدّمته الثورة اللبنانية لأبنائها وما اختبره أحداث لبنان على وجه التحديد.

الأهم من كل تلك المظاهر التي حفظتها مواقع التواصل هي تلك الصور الفنية والمؤثرة لصغار لبنان وهم يشاركون ليلا ونهارا في المظاهرات والاعتصامات إن كان عبر الهتافات وحمل اليافطات ورسوماتهم، أو حملهم للعلم اللبناني والتلويح به بكل ما أوتوا من قوة جسدية ولهفة وحماسة.

هؤلاء صنعوا، إلى جانب مظاهر أخرى، معالم ثورة سلمية أثبتت الدراسات أنها الأقدر على تغيير الواقع مقارنة مع الثورات "العنفيّة"، لاسيما على المدى البعيد.

وفي محاولة للتقرّب منهم أكثر، حدث أنني تقصّدت في العديد من المرات أثناء حضوري في الساحات أن أتأملهم وهم يتحلّقون من حول رسّامي الأقنعة على الوجوه لكي أستمع إلى ما يطلبونه ولماذا.

من الكلمات التي سمعتها "أريد أرزة على وجهي.. أريد أن يعرف الكل أنني لبناني"، وعند سماع بعض الأطفال ما قالته إحدى الفتيات "أريد أن ألوّن وجهي بالأحمر كي يخاف مني السياسيون"، قال أحدهم "عندي فكرة. لماذا لا نلوّن كلنا وجوهنا بالأحمر فنصير مجموعة كبيرة ونذهب إلى أمام مجلس النواب ونصرخ بأعلى صوتنا حتى يهربوا؟".

اقتربت من الصبي الذي قال هذا الكلام، وسألته "لماذا إلى مجلس النواب؟"، أجاب "أنت كبيرة ولا تعرفين؟ هؤلاء أكبر حرامية، وهم أصل المشكلة. لازم نخوّفهم!."

اقترب صبي آخر مني، وقال وكأنه يواسيني "إن أردت نسمح لك بأن تلوّني وجهك وترافقينا حتى لا يقال بأننا أولاد نتصرّف لحالنا!."

كما سألت إحدى الفتيات اللاّتي كانت تلفّ حول عنقها الكوفية الفلسطينية "ما هذا الجميل الذي ترتدينه؟"، فأجابت بخجل "هذه الكوفية الفلسطينية" فعلّقت على كلامها قائلة "ولكنك لبنانية؟"، فأجابت "هذه كوفية الثورة. فيها قوة، ليست فقط للفلسطينيين". دخلت فتاة أخرى، ربما تبلغ من العمر عشر سنوات على خط الحوار، وقالت "ليس للعراقيين كوفية، وإلاّ كنت لبستها أيضا. هم أيضا يكرهون السياسيين، رأيتهم على التلفاز". وأمام هذا الجو المؤثر تحمس الجميع وبدؤوا يصرخون "ثورة.. ثورة.. ثورة..."

إلى جانب كل هذه المظاهر النضرة في الثورة تشكّلت ورشات عمل فنية صُمّمت خصيصا للأطفال ليشاركوا فيها راسمين أحلامهم عن لبنان جديد.

اختلفت الرسومات إن من خلال أساليب التعبير أو من خلال الأفكار المطروحة، لكنها جاءت جميعها ملوّنة بأزهى الألوان، كما حضر فيها العلم اللبناني بكثافة.

ومن اللوحات اللافتة كانت رسمة صنعتها إحدى الفتيات في ساحة رياض الصلح بالقرب من مبنى العازارية ظهرت فيها أعلام لبنانية لديها عيون وتسير متشابكة الأيادي مع أعلام لبنانية أخرى. كما حضرت لوحة لعلم لبناني من دون أرزة تتوسطه، بل يحملها هذا العلم بين يديه.

بعد مرور أكثر من أربعين عاما على انتهاء الحرب اللبنانية رسميا، لا زال البلد غارقا بشتاته في جميع أنواع الأزمات التي تفاقمت مؤخرا إلى حد كبير، حتى جاءت الثورة لتبدأ بمعالجة أزمة هوية مستفحلة جعلت من أبنائها حديثي السن يكرهون حتى التكلم باللغة العربية والتباهي بجنسياتهم المختلفة التي حصلوا عليها لاحقا، بسبب مكوثهم طويلا في بلاد الغربة وصولا إلى اعتبار أن لا فن إلاّ الفن الذي ينتجه العالم الغربي.

اليوم يُصنع لبنان جديد، وصنّاعه المستقبليون هم أولاد الثورة المنتمون حديثا جدا إلى لبنانيتهم، وإلى ما شكّلته رسوماتهم عن لبنان الحلم/ الحقيقة.

ثائر اليوم.. غد الوطن